بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في تطور الفكر الغربي والحداثة

سفر الحوالي

الحمد لله الرحمن الذي علمنا القرآن وفضلنا بالإيمان ورضي لنا ديناً خير الأديان ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله سيد ولد آدم نبي الرحمة ونبي الملحمة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن الله تعالى قدر أن يكون لهذه القارة الصغيرة ذات البيئة القاسية (أوربا) أثر كبير في تاريخ الجماعة البشرية كلها وأن تتولى قيادة ركب الغواية في صراعه الأبدي مع ركب الإيمان الذي قدر الله أن يكون معتصمه بلاد التين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين[1] .

والاستكبار على الله والشرود عن دينه الذي بلغت به المجتمعات الغربية المعاصرة غايته لم يأت عرضاً وإنما هو وليد قرون من الصراع والتخبط ثم الجموح والتمرد . فقد كان منبت الحضارة الأوروبية من القاع الذي اجتمعت فيه رواسب الحضارات الجاهلية البائدة (سومرية ، آشورية ، فرعونية ، إغريقية

---

[1] أما في سابق الدهر فمعروف تاريخ هذا الصراع لاسيما منذ بزوغ فجر الإسلام وأما مستقبله فالأحاديث الصحيحة في الملاحم مع الروم تشهد له وهي في الصحيحين وسائر كتب الأشراط والفتن والملاحم ، وفي كلا الحالين : الروم هم المعتدون على أتباع الأنبياء.

، رومانية) بعد تصفية كل تلك الحضارات من آثار النبوة وبقايا الرسالات حيث استبعدت أو طمست أية إشارة إلى توحيد الله عز وجل وإلى رسله الكرام وكتبه المنزلة[1] ونفض الغبار عن الأوثان القديمة وشرك القرون الأولى ونُقِّب عما طمره الدهر من أساطير وأصنام وضلالات وجهالات .

ذلك أنه في ظل الحضارة الجاهلية الأخيرة (الرومانية) اعتنقت أوربا نصرانية " بولس " المنسوبة زوراً إلى المسيح عليه السلام حينما أعلن ذلك الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥ م وانتقلت عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة (القسطنطينية) ويشاء الله تعالى أن يلي ذلك مرحلة مفجعة من تاريخ أوربا الغربية وهي المرحلة الممتدة من سنة ٤١٠م (أي تاريخ سقوط روما بأيدي البرابرة) إلى ١٢١٠م (أي تاريخ ظهور أول ترجمة لكتب أرسطو في أوربا) ثمانية قرون كاملة من التيه والضلال اصطلح المؤرخون الغربيون على تسميتها (أو جزء منها) عصور الظلمات وأفاضوا في الحديث عن الانحطاط الكامل حينئذ في الثقافة والعلم والفن وكل جانب من جوانب الحياة إلا جانباً واحداً شذ عن ذلك وهو الدين حيث توغلت النصرانية في الممالك البربرية الوثنية

[1] اقرأ التاريخ العام للحضارات كما يصوره الفكر الغربي فهل تجد في تاريخ مصر الفرعونية ذكراً لموسى عليه السلام وقومه رغم الحديث الطويل في التوراة عنهم ؟ ، واقرأ تاريخ الآشوريين فهل تجد ذكراً ليونس عليه السلام ؟ ، واقرأ تاريخ الفينيقيين والحثيين فهل ترى ذكراً لإلياس عليه السلام ؟ ، بل إن إبراهيم عليه السلام لا يكاد يذكر ، وأما بشأن نوح عليه السلام فنجد الحديث عن الطوفان ولا نجد لنوح ورسالته ودعوته من ذكر !!

وكان ذلك العصر هو العصر الذهبي لانتشار النصرانية في أوربا كلها وأسست كنائس وأنظمة رهبانية جديدة[1].

تطيرت أوربا بانتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية الذي أعقبه الاجتياح البربري الكبير لروما والإمبراطورية الغربية وحدث هذا التناقض الحاد = انهيار كامل حضارياً وعلمياً وانتشار هائل دينياً !!

وهذا ما أدى لأن يجاهر بعض المؤرخين (ومنهم أكبر المؤرخين لتلك الفترة قاطبة : ادوارد جيبون) بالقول إن سبب انهيار الإمبراطورية الغربية هو تحولها من الوثنية إلى النصرانية ، وبالطبع لم تقل الشعوب الأوربية حينئذ مثل هذا ولكن في ((اللاشعور)) ارتبطت الوثنية بالحضارة والقوة وارتبط الدين بالهزيمة والانحطاط ، وهو ما كان له آثار بعيدة المدى في علاقة أوربا بالدين [2]. أعني دينها أما الإسلام فإنه لما كان الرومان عامة يعدون كل ما عداهم من الشعوب برابرة ولما كان البابوات ورجال الكنيسة يعدون الإسلام وثنية فقد اتفق الموردان في النظرة القاتمة إلى العالم الإسلامي وامتزجت العنصرية القديمة بالحقد الديني الجديد . مع أننا لو انتقلنا إلى واقع الحياة الإسلامية حينئذ وعقدنا مقارنة بين الدينين والحضارتين لوجدنا البون شاسعاً والفرق بعيداً :-

١ – لم يكن لدى أوربا مركز حضاري يمكن أن يسمى "مدينة"بالمفهوم السائد عن المدن فيما بعد . وأكبر ما كانت تعرفه هو (

---

[1] مثل الكنائس والطرق الرهبانية التي أسسها (بندكت ، كولومبس ، بونيفاس ، برنارد ، دوميونيك ، فرانسيس) وكلها طرق مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا عرف مثلها السيح والحواريون .

[2] وعلى العكس تماماً كان الإسلام أعظم نقلة في تاريخ العرب وغيرهم نقلتهم من الظلمات والانحطاط إلى النور والتقدم في كل شيء ولكن العلمانيين العرب يتعامون عن هذا ، دع الغربيين فما على عدو ملام .

بيزنطة وروما) اللتان لم تكونا سوى قريتين متأخرتين إذا قورنتا بالمـــدن العالمية آنذاك (بغداد ، دمشق ، القاهرة قرطبة ...الخ)[1] .

٢ -لم يؤلف في أوربا خلال تلك الحقبة الطويلة كتاب علمي على الإطلاق في حين نجد الواحد من علماء المسلمين يكتب العشرات وربمـــا المئات من المصنفات في فنون المعرفة جميعها .

وإذا كانت أوربا تعد ظهور ترجمة كتب أرسطو بداية الخروج مـــن عصر الظلمات فإن الفضل عليها في ذلك يرجع إلى رجل ليس أوربيـــاً ولا نصرانياً بل هو ابن رشد المتوفى سنة ١١٩٨م .

ومن هذا المنطلق العنصري وبتلك الرواسب الجاهلية انتقلت أوربـــا ببطء – في مرحلة مفعمة بالمفاجئات والإنكسارات الحادة -من عصـــر الظلمات البربري إلى عصر الظلمات الصناعي وصـــولاً إلى المرحلـــة المعاصرة من الظلمات المتراكمة المسماة = عصر ما بعد الحداثة .

واستمر القدر الإلهي ألا تعتنق أوربا الإسلام { وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون } هذا مع أن أساس نهضتها كان إسلامياً وأن العربية كانت لغة العلم فيها إلى القرن الثامن عشر وأن جامعاتها إنما قامت محاكاة للجامعات الإسلامية .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد غير أن ما فعلته أوربا كان أفظع من مجرد التعصب لوثنيتها وترك الاهتداء بهدى الله ، فقد تعدى ذلـــك إلى

---

[1] لا يزال التعصب والعنصرية يجريان في عروق المفكرين الغربيين حتى أن بول كينيدي عندما عدد المدن العالمية في العصور السابقة ذكر بعض مدن الحضارتين الإغريقية والرومانية و لم يذكر مدينـــة إســـلامية واحدة (مستقبل القرن الحادي والعشرين ص من الأصل الإنجليزي).

العدوان العسكري المتواصل أبداً على الإسلام وأهله والوقوف الدائم مع كل عدو لهم وإن كان عابد حجر أو بقر !! .

لقد كان إجحافا أن تنظر أوربا للمسلمين النظـــرة إلى البرابـــرة ((القوط ، النورمانديين ، الفايكنج)) بلا أدنى اختلاف لكن أنكى منه أن تتداعى القارة طولاً وعرضاً شرقاً وغرباً وتهب هبة رجل واحد لتحرير الأراضي المقدسة من البرابرة الجدد – زعمت - !!

وهكذا كانت الحملات الصليبية .. وكانت الصدمة الحضارية الـــتي لم تنسها أوربا لحظة واحدة من عمرها :-

- أوربا التي لا تعرف المدن تحاصر مدناً هي صـــغرى في محيط الحضارة الإسلامية لكن بعضها يبلغ عشرة أضعاف روما عاصمة المتحضرين المقدسة !!
- أوربا التي لم تعرف العلم قروناً بل لم تعرف كتابـــاً إلا الإنجيل ولا قارئاً إلا القسيس تذهل للمكتبات الهائلـــة الـــتي تختـــزنها هذه المدن الصغرى من عامة وخاصة وفي كـــل فنـــون المعرفة من الفلك إلى النقد الأدبي !!
- أوربا التي لا تستطيع أن تستغفر ربها أو تصلي لـــه أو تقدم له قرباناً إلا بتوسط البابا وكهنته ولا تستطيع أن تقـــرأ كتابها المقدس ولا تفسره أو تترجمه إلى لغة حية تجـــد كتـــاب الله الأخير ((القرآن)) في الشرق الإسلامي المتحضر تتلوه الملايـــين في المساجد والبيوت والكل يعبد رب العالمين بلا واسطة مخلوق .

- أوربا التي يعيش ٩٩ % من أهلها عبيداً ورقيق أرض وفلاحين لا يستطيع أحدهم أن يتنفس الهواء خارج إقطاعيته وإن حاول ذلك كان عقابه الكي بمياسم عريضة تطبع العبودية على جبينه مدى الحياة – تجد الناس في الشرق الإسلامي يعيشون ويتنقلون أحراراً في أرض الله الواسعة من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي ويتاجرون مع جنوب أفريقية والدول السكندنافية وربما مع جزر الكاريبي !!
- أوربا التي كان أفضل نموذج لوحداتها الإدارية هو حكومات "الكوميون" في إيطاليا تجد الشرق المسلم يعيش أرقى النظم الإدارية في ممالك تبلغ مساحتها مساحة القمر !!
- أوربا التي يحكمها الأباطرة حكماً استبدادياً مطلقاً ويعتقد الرعايا أن القيصر من نسل الآلهة وأن الله هو الذي أعطاه هذا الحق قدراً وشرعاً وأورثه لسلالته المقدسة تفاجأ بالمسلمين وسلاطينهم من الترك تارة ومن الكرد أخرى ومن المماليك ثالثة والكل بشر في نظر سائر البشر [1].
- أوربا الغارقة في الهمجية والوحشية التي تحرق المخالفين وهم أحياء وتتفنن في تعذيب المنشقين وإذلال المقهورين

[1] ظهر في العالم الإسلامي من يدعي دعوى أباطرة أوربا وبابواتها كالعبيديين المتلقبين "الفاطميين" وأشباههم ولكنهم كانوا منبوذين من عامة الأمة لأن نور الكتاب والسنة جعل العامة من المسلمين أرقى فكراً من كثير من فلاسفة اوربا الذين يؤمنون بهذه الأساطير مثل ما كان يعتقد هيجل في طواغيت بروسيا !!

ولا تعرف عهداً ولا ميثاقاً تبهرها الأخلاق الإسلامية في الحرب والسلم سواء [1] .

- **أوربا التي ما كانت تحسب العالم إلا أوربا والتي تسمي الوصول إلى شيء من أطراف الشرق اكتشافاً[2] [وظلت هكذا إلى القرن التاسع عشر] فوجئت بالمسلمين يجوبون الدنيا شرقاً وغرباً تجاراً ورحالة ودعاة – بكل تواضع وهدوء – لقد وصلوا إلى أجزاء من شمال أوربا قبل أن تعرفها أوربا نفسها هذا عدا العالم الشرقي الهائل السعة بالنسبة لها براً وبحراً [3]،وما المساجد التي اكتشفت في جزر الكاريبي وصرخ كولمبس حين رآها ((يا إلهي!! حتى اليابان فيها مساجد؟!!)) إلا أحد الشواهد الثابتة على هذا .**

- **أوربا التي كانت تتداوى بمركبات من الروث والبول وأشلاء الحشرات الميتة تفاجأ بالعالم الإسلامي زاخرا**

---

1 حسب أي منصف أن يرى كيف يعيش النصارى في مصر والشام وغيرها حتى يومنا هذا مع أنهم منذ الفتح الإسلامي في القرن الأول حتى الآن ليسوا سوى أقلية ضئيلة في محيط إسلامي كبير ويقارن ذلك بالإبادة المستأصلة التي نزلت بمسلمي الأندلس على يد أوربا النصرانية في العصر المسمى عصر النهوض !!

2 انظر مثلاً كتاب " اكتشاف جزيرة العرب " وقد أقر المحقق التسمية لا بلسان الحال فقط بل بلسان المقال وهذا حال من تقمص عدوه وذاب في حضارته !!

3 هذه الفوارق – وغيرها كثير – مع أن المسلمين كانوا عند قوم الصليبيين مقصرين في العمل بأحكام الإسلام والتمسك بحقيقته وفي اعتقادي أن أوربا لو رأت أخلاق النبوة المتمثلة في الجيل الأول الذي شهدته مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية لأسلمت نفسها لله كما فعل أولئك ولآمن كثير من الصليبيين ولو قطعهم البابا إرباً إرباً ولكنها حكمة الله في عقوبة هؤلاء وإضلال أولئك .

بالمستشفيات والمعامل القائمة علة منهج التجربة و الاستقراء مع الخبرة والحدس ، في التشريح والتشخيص والجراحة وتركيب الدواء وكل ذلك مدون في موسوعات ضخمة ظلت المصدر الأول لنهضة الطب الحديث ولا تزال رافدا متجددا له [1]

وإجمالاً : ولدت أوربا ولادة جديدة ووجد لديها لأول مرة في تاريخها الشعور بأنها أمة واحدة تواجه عدواً أبدياً هو الإسلام ، وكانت طفولتها في ذلك العصر الذي سمي عصر النهضة أو الانبعاث الذي تعمّدت ألاَّ تجعله يبدأ تاريخياً بمعرفة الدين الرباني واكتشاف حضارته العظمى بل بلحظة الإبحار العكسي إلى الجاهلية الإغريقية واكتشاف أرسطو .

إن ولادة أوربا في ظل الحروب الصليبية وشعورها بذاتها من خلالها هو الذي يفسر تلك التناقضات الصارخة التي يعيشها الفكر الغربي متمثلة في هذه المعادلات الصعبة :-

[1] عندما سقطت الأندلس في يد فرديناند دايزبيلا أصدر أمرا بهدم كل الحمامات وسنت الكنيسة قانونا يعتبر الاغتسال عادة إسلامية وقرينة لمحاكم التفتيش على أن فاعله لم يتنصر على الحقيقة . وفي ظل هذا الحكم الكاثوليكي ازدهرت تجارة البول البشري للتداوي به ، فقد كان الغرب مبهورا بالحضارة الأندلسية لدرجة أن أبوال الناس في الأندلس هي أفضل أنواع الدواء !!

((كل هذا فصله أحد المستشرقين الأسبان المعاصرين . ولعل الله يهئ لإخراج مادة عن هذا الموضوع الصارخ الدلالة))

- تعصب صليبي على الإسلام من بطرس الناسك إلى كلاوس[1]يوازيه داخلياً تمرد كامل على دين الصليب .
- إزدراء مطلق للعصور الوسطى باعتبارها عصور إيمان يوازيه تحيز فاضح لها إذا قورنت بنظيرها التاريخي في الإسلام !!
- الحكم بالسذاجة والبدائية على الفكر الإغريقي باعتباره نقطة البداية في مسيرة الحضارة الغربية يوازيه الحكم عليه بالعظمة والإبداع بالنسبة للحضارة الإسلامية .

ولقد صدق أحد المفكرين الغربيين حين قال في وصف هذه الحالة من التناقض ((كانت أوربا تعبد أرسطو وتلعنه في آنٍ واحدٍ)) وهو التناقض الذي يدفع المسلمون ثمنه للحضارة الغربية إلى الآن .

ولئن كانت كتب أرسطو بمنزلة الكوة الصغيرة التي نفذت منها أوربا في انفلاتها من سجن الكنيسة المظلم فإنها لم توصلها إلى بر الأمان بل إلى نفق الجاهلية الإغريقية التي لم تخرج منه إلا إلى صحراء القلق والضياع التي يصطلي الإنسان الغربي المعاصر بلهيبها .

ومع أننا لا ننسى إطلاقاً مسؤولية الأمة الإسلامية في كل ما حدث ويحدث فإننا سنتجاوز هذا لننظر نظرة مجردة كيف أصبح الوليد عملاقاً مارداً ، أي كيف تشكلت أوربا الحديثة ؟

وللإجابة الإجمالية على هذا نقول :-

[1] الأمين العام لحلف الناتو الذي قال بكل وضوح إن العدو الذي يعمل الحلف لمواجهته بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو الإسلام .

إن هناك اتفاقاً عاماً لدى مؤرخي الفكر الأوربيين على أن النهضة الأوربية قامت على دعائم (أو حركات) ثلاث :-

١) النـــزعة الإنسانية ((Humanism)) وإحياء الآداب القديمة (أي الانتكاس للجاهلية الإغريقية) .

٢) حركة الإصلاح الديني .

٣) النظرة التجريبية .

وفي كل هذه الحركات نجد الأثر الإسلامي ظاهراً يوازي – إن لم يـــزد على – الثورة العقلية الذاتية على خرافات الكنيسة والرغبة الفطرية في التحرير مـــن ظلمها واستبدادها . ومع هذا التوازي في الدوافع والأسباب استطاعت أوربـــا بدهاء شيطاني أن تحتفظ بأسباها الذاتية وتمدها إلى نهايات بعيدة أما الخط الآخر فأسدلت عليه حجباً كثيفة من الإهمال والتناسي .

فالنـــزعة الإنسانية مدينة كلياً للحضارة الإسلامية ولا ينحصر ذلك في الأثر الأدبي [إقتباس أبرز ممثليها وهو دانتي من أبي العلاء وابن طفيل] ، بل يشمل العصر كله حتى أن الإمبراطور فردريك الثاني وهو أكبر أباطرة القرون الوسطى بإطلاق ، ويعتبر لدى بعض المفكرين أول المحدثين ورائد النهضة ،كان يتكلم العربية وكان بلاطه عربي العلم واللسان حتى أنه حينما قابل الملك الكامل الأيوبي للصلح لم يحتج إلى مترجم ، ولهذا اتهمته الكنيسة بالإسلام وسمته "الزنديق الأعظم " !! [١] .

أما حركة الإصلاح الديني فلم تولد مع " لوثر " و " كالفن " بل لها جـــذور عميقة الصلة بالإسلام لا يستطيع أي باحث أوربي أن يغفلها مهما قلل من شأنها

---

[1] انظر كتاب جايديس (الزنديق الأعظم) معرَّب .

، ومنها ((حركة تحطيم الصور والتماثيل)) التي اجتاحت الإمبراطورية البيزنطية في أوائل القرن الثامن الميلادي – أي بعد قرن تقريباً من ظهور الإسلام - ، وممن آمن بذلك وأصدر مرسوماً عاماً به الإمبراطور " ليو الثالث "[1].

صحيح أن التوراة حرمت ذلك[2] ولكن الكنيسة أحلته فيما حرفت من شريعة الله ووصاياه ، وكل ما فعلته تحويل الناس من تصوير العظماء الدنيويين إلى تصوير المسيح وأمه والقديسين عندها .

أما التجريب الذي تعزى إليه نهضة أوربا العلمية عامة فإن باعثه الظاهري هو التساؤل العقلي الذي افترقت عليه الفلسفة القديمة ، وهو : أيهما أصدق الفكر المجرد أم التجربة الحسية ؟ .

ولم يكن صعود " جاليليو" إلى البرج وإسقاط جسمين متماثلين في الوزن إلا تدليلاً على بطلان قول " أرسطو " في ذلك[3].

---

[1] واستمرت الحركة إلى عهد الإمبراطورة " إيريني " التي كانت معاصرة لهارون الرشيد – رحمه الله – حيث انتصرت الدعوة إلى الوثنية وأقر مجمع " نيقية " الثاني سنة ٧٨٧م التماثيل والتصوير ، وهكذا أغرقت أوربا في الوثنية ولا تزال .

[2] في سفر اللاَّويين الإصحاح التاسع عشر ((أنا الرب إلهكم ، لا تلتفتوا إلى الأوثان وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم)) ، وفي الإصحاح السادس والعشرين ((لا تصنعوا لكم أوثاناً ، ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له)) ، ونحوه في سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع عشر ومواضع كثيرة من أسفار الأنبياء .

[3] يرى أرسطو حسب النظر العقلي المجرد أن أثقل الجسمين يقع على الأرض أولاً في حين أثبت جاليليو بالتجربة وصولهما معاً ، وبذلك تبين أن عوامل غير الكثافة ((فراغ الوسط أو تخلخله))هي المؤثرة في سرعة السقوط .

ومن هنا فإن الفكر الإسلامي (السني خاصة) الذي رفض أرسطو رفضاً مطلقا ودعا – وفقاً لصريح القرآن – إلى نبذ تقليد السالفين ، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض والنظر في آيات الله الآفاقية والنفسية هو أصل تقدم الإنسانية الحالي كلها ، وما فعله " جاليليو " بالنسبة لحركة الأجرام السماوية ما هو إلا جزء من الأثر السني الذي شمل العالم وصرع المنطق الصوري الإغريقي في الشرق قبل أن تتخلص أوربا منه بعدة قرون [1] .

وعلى أية حال انطلقت أوربا في نهضتها بعيداً عن الدين وسوف نتتبع خط سيرها مقتصرين على الجانب المقصود بالذات وهو ((الأدب والفن)) الذي تنعكس على صفحات محيطه المتماوج الأوجه المتعاورة لأوربا في مراحلها التاريخية المتتالية .

كان جمود الآداب جزءاً من الجمود المطلق في ظل الكنيسة حيث كان العلم (وبالأصح معرفة القراءة والكتابة) منحصراً في رجال الدين ، وأسوأ من ذلك أنه كان بلغة ميتة " اللاتينية " وهي لغة معقدة الأسلوب والقواعد في حين كانت أوربا تتكلم لهجات كثيرة متباينة .

أما المعايير الفنية للأدب والبلاغة والشعر والمسرح فكلها مصفَّدة بآراء أرسطو ونظرياته ، وغاية العبقرية والإبداع والتجديد أن يستنبط الأديب أو الناقد من كلام أرسطو شيئاً أو يفرع عليه آخر ، أما الخروج عليه فهو المحال .

[1] رغم الثورة العنيفة في الفكر الأوربي على منطق أرسطو لم يستطع أي فيلسوف أوربي ولا (هيجل) أو (جون مل) أن يكتب في نقض المنطق مثلما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - ، وأنى لهم ذلك !

فالملحمة (وهي التي ينعى الأوربيون على أدبنا العربي خلوّه منــها) ظلــت خلال القرون الوسطى والعصر الحديث محكومة بتلــك القواعــد المتــــزمتة والتقاليد الثابتة ومنه ضرورة الاستهلال بالتضرع إلى ربــات الشــعر مثــل " كليوبي " ، فالشاعر الإغريقي هو "ميروس" يتضرع إليها في ملحمتــه وكــذا تضرع صنوه "هزيود" وعلى أثرهما نجد "دانتي" المسيحي يتضرع إلى "أبولــو" (إله الشعر) في الكوميديا وكذلك تضرع "ميلتون" إلى "أورانيــا" (ربــة علــم الفلك) في ملحمته "الفردوس المفقود" !! تعالى الله عما يشركون .

وفي الشعر نجد التقيد المطلق بما ورثه القدماء في المضمون والشكل ومن ذلك الالتـــزام بالمقاطع وعدد الأبيات في كل مقطع وعدد التفعيلات أيضاً أما النقد فكان ما قرره أرسطو هو المعيار الدقيق ، وكانت المحاكمات الأدبية تتخذ كلامه دستوراً .

وهكذا لم تكن الكلاسيكية إلا تعبيراً واضحاً عن اعتقاد أوربا الكمال المطلق لعمالقة الفكر الإغريق وعلى رأسهم أرسطو .

والمهم أن أوربا النصرانية قدست اللاتينية تقديسها للنص الــديني نفســه ، وقدست معايير أرسطو الفنية تقديسها لعلم الكلام الكنسي المنقول عن الفكــر الإغريقي .

ومن هنا كانت الحركة الأدبية المتحررة موصومة منذ البداية بالإلحاد والزندقة ، وكان لابد لدعاتها من التسلح بقدر كبير من المغامرة والجرأة .

إنه ليس تحرراً من القيود الأدبية ولكنه تحرر من القبضة الكنسية الجائرة .

وكانت الزحزحة الأولى حيث ظهر حدثان أدبيان كبيران :-

أولهما : " الكوميديا الإلهية " للشاعر الإيطالي دانـــتي ١٣٢١م أبـــرز رواد عصر النهضة (معه : بتراك ، دافينشي ، تشوسر ، مايكل أنجلـــو) ، وبـــذلك سجلت أوربا كما يقول برتراند رسل : وثيقة التحرر الأولى !!

أما وثيقة التحرر الأخرى : - وهي أعظم من الأولى – فكانت علـــى يـــد المصلح الكنسي "مارتن لوثر" ذلك المتدين الثائر الذي هاله ما رأى من فظـــائع البابوية فكتب وثيقة الاحتجاج المشهورة سنة ١٥١٧م وجعلها خمسة وتســـعين بنداً وعلقها على مدخل كنيسة ويتنبرج ، وليست هذه هي وثيقة التحرر الـــتي نريد هنا ولكنها انبثقت منها ، فقد ترجم لوثر الإنجيل إلى اللغـــة (اللهجـــة) الألمانية الدارجة وكانت أوربا قد عرفت المطبعة لأول مرة على يـــد جـــوتنبرج الألماني فكانت طباعة الإنجيل مترجماً بلغة غير اللاتينية هي الوثيقة الأدبيـــة الأم وإن شئت فقل هي (البيان الحداثي الأول)[1]إلا أن أحداً من الناس حينئذ لم يطلق على هذا اسم الحداثة " موديرنـــزم " بمصطلحها الأدبي ، ذلك أن الخلاف بين لوثر والكنيسة أكبر من أن يكون في الأدب أو اللغة .

وظهر بعد اللوثرية مذاهب وألوان دينية جديدة لاسيما في القـــرن الســـابع عشر وكان من أهم أسباب ظهورها انتشار الإنجيل بلغات حية كـــثيرة فـــدخل الجميع من الباب الذي فتحه لوثر ومنها (الكالفينية = كالفن) (الجزويـــت = اجناثيوس) (الكويكرز = جورج فوكس) (الويزلية = جون ويزلي) ومـــع

---

[1] هذا الرأي الذي نقوله يبدو مخالفاً للسائد في تاريخ الحداثة عند كثيرين لكن لا جرم أن البدايات الفكرية دائماً موضع اختلاف على أن من تأمل ملياً ظهرت له وجهة نظرنا . انظر مثلاً "حكمة الغرب" : براند رسل ، ترجمة فؤاد زكريا ، ١٩٨٣ م الكويت ، ص ١٧ – ٤٢ .

أنها اتجهت كلها تقريباً لمحاربة الكنيسة الكاثوليكية أو مخالفتها فقــد بــرزت في المقابل محاولات لإعادة الوحدة الدينية لأوربا .

ولكن حدث في المرحلة التالية من الدواهي ما أذهل الكنائس جميعها وأنساها شيئاً من الخلافات فيما بينها وأن شئت فقل غمرها إلى حين .

ونعني بذلك التحولات الكبرى في الحياة الأوربية التي يسمونها جميعاً ثــورات وأهمها :-

١- الثورة العلمية .
٢- الثورة الفرنسية .
٣- الثورة الصناعية .

ويهمنا الآن الحديث عن الأولى منها :-

لقد كان العلم (وبالدقة العلم + موقف الكنيسة الأحمق من العلماء) يمثــل الثورة الكبرى التي نسفت خرافات الكنيسة وأطاحــت بعرشــها وقوضــت وجودها الطاغي إلى الأبد (كما نسفت في الوقت نفسه أرســطو ونظرياتــه في العلم والفن والحياة) .

وقد صدرت بيانات هذه الثورة تباعاً :-

نظرية كوبرنيق عن الأجرام السماوية ١٥٤٠م .
تطوير النظرية على يد تيكو براهي ١٥٧٥م .
نظرية جاليليو في الحركة وصنع المرقب ١٥٩٧م .
قوانين كبلر الثلاثة ١٦٢٠م .
نظرية الجاذبية وقوانين الحركة لنيوتن ١٦٨٧م .
أول نظرية كونية وضعها لابلاس ١٧٨٠م .

وصاحب ذلك متأثراً به نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية قدمت بيانات مساندة للثورة :-

١- المكيافيللية في السياسة : مكيافيللي يؤلف الأمير سنة ١٥١٣م .
٢- ظهور الفلسفة الحديثة على يد ديكارت ١٦٥٠م .
٣- النظرية الطبيعية للدولة والمجتمع "التنين" هوبز ١٦٧٩م .
٤- سبينوزا ١٦٧٧م يؤسس مدرسة النقد التاريخي للكتب النصرانية المقدسة[1] ويجاهر بنبذ النصرانية في السياسة والأخلاق والاعتقاد بوحدة الوجود .
٥- تطوير نظرية هوبز وفلسفة ديكارت على يد لوك ١٧٠٤م .
٦- فيكو ١٧٤٤م ينادي بإحلال الوضع الإنساني محل الوحي الإلهي .
٧- آراء جديدة في المنطق : باركلي ١٧٥٣م .
٨- رفض النصرانية والإيمان بالشك المطلق : هيوم ١٧٧٦م .
٩- ولادة النظرية الرأسمالية في كتاب "ثروة الأمم " آدم سمث ١٧٧٦م .

[1] لم يبق لدى الباحثين المعاصرين شك في أن سبينوزا – وهو يهودي أندلسي فر من الاضطهاد الكاثوليكي بعد سقوط الدويلات الإسلامية بالأندلس – قد بنى نظريته على الأساس المنهجي الذي وضعه ابن حزم في "الفصل"

١٠- نظرية العقد الاجتماعي وتقديس العاطفة لا العقل : روسو ١٧٧٨م .

١١- فولتير ١٧٨٤م يجاهر بالكفر بالأديان ويطالب بمجتمع علماني .

١٢- ديدرو ١٧٨٤م والموسوعيون الفرنسيون يضعون دائرة المعارف لتكون بديلاً عن الكتاب المقدس (كتبت بين عامي ١٧٥١-١٧٧٧) .

وهكذا نكون قد اقتربنا من الثورة الثانية التي هي نتيجة لهذه الأولى .

ففي سنة ١٧٨٩م حدثت الثورة الفرنسية فأضحت معلماً فاصلاً لا في تاريخ الفكر والأدب فحسب بل في التاريخ عامة .

ومنذ عصر النهضة حتى ظهور الثورة الفرنسية كانت " الكلاسيكية " هي السائدة على الأدب الأوربي .

وقيمة الأدب الكلاسيكي تتمثل في مضمونه الأخلاقي والتزامه المدرسي وحديثه الدائم عما ينبغي أن تكون عليه الحياة .

فالنهايات الكلاسيكية (في المسرحية والملحمة سواء) تأتي دائماً انتصاراً للحق والفضيلة ، إنه دعوة إلى الحكمة العملية لكنها لا تخاطب الناس باسم الدين ضرورة كما أنه كان في جوانب منه لا يهدف إلى أكثر من إعطاء أكبر قدر من المتعة للقارئ ولو كانت متعة لغوية تقوم على أنواع المحسنات اللفظية وإثبات القدرة على الحذلقة ، وكان المسرح من احتكار الطبقة الأرستقراطية (الملوك والنبلاء) تفوح منه روائح العهر والفحش والإباحية وغمزات دائمة للدين ورجاله

ونتيجة التغييرات الطارئة وجرياً على سنة التذبذب في التاريخ الأوربي تحول الأدب الأوربي من الكلاسيكية إلى نقيضها " الرومانسية " .

والرومانسية هي ارتداد صوفي ولكن موضوعه ليس الرب كما في رهبانية النصارى بل " الطبيعة " وهي لا تهدف إلى التوجيه العقلي للناس عن طريق حكمة القدماء بل إلى الإشباع العاطفي الذي يجعل الذات محور العالم .

إنها مزيج من اليأس الرهباني والهروب من الواقع الذي كلما تقدمت المعرفة العقلية أظهرت أنه أكثر قتامة وكآبة .

وهكذا كان محورها الدائم هو البؤس ، البؤس الديني كما في " الفردوس المفقود" [1] أو البؤس الأخلاقي كما في " البؤساء " [2] أو البؤس العاطفي والنفسي الذي عبر عنه " روسو " !! .

فلئن كان الأوربيون قبل اعتناق النصرانية يعبدون الحجارة والأشجار والحيوان والكواكب فإن الرومانسية الهاربة من النصرانية قد جمعت هذه الأوثان جميعاً في صنم واحد سمته " الطبيعة " وجعلت محل التراتيل الكنسية تلك الأشعار الوجدانية التي تتعشق المعبود الجديد ، كما فعل رمزها الكبير روسو في " راهب سافوي "

حقاً وجد الفكر الأوربي في الرومانسية راحة من الكد المنطقي الذي أرهق مفكري عصر النهضة وما بعدها نتيجة البحث العقيم في الكليات والماهيات والعلاقة بين العقل والمادة والتطلع اليائس إلى معرفة كنه الأشياء منطقياً ، واستطلاع الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة !!

---

1 ملتون .

2 فيكتور هيجو .

كما وجدوا فيها مهرباً من الالتزام بالمعايير الخلقية عامة ، واستطاعوا إحلال المعايير الجمالية المجردة محلها .

كما كانت الرومانسية ملاذاً لأولئك النفر الذين أزعجتهم الحروب القومية والدينية التي لم تهدأ قط [1] ، حيث فتحت لهم مجال تعويض الذات القانطة المغتربة في صراع ليس لها له ما يبرره عندها ، كما فعل " همنغواي " في وداعاً أيها السلاح " بعد حوالي قرنين .

ثم كان القرن التاسع عشر هو قرن التغيرات الكبرى في كل مجالات الحياة الأوربية :-

- الثورة الصناعية تعم أرجاء القارة حاملة الكوارث الاجتماعية مع التقدم المادي الكبير .
- الرأسمالية بوجهها الكالح تسيطر على أوربا وتحفز الأوربيين للتنافس الضاري على خيرات العالم كلها حيث كان العصر الذهبي للتوسع الاستعماري والاحتكار التجاري .
- الثورات السياسية تجتاح القارة مزلزلة بقايا الإقطاع والأنظمة الملكية.

---

[1] الحرب هي شأن الحضارة الغربية الدائم ومن أبرز الأمثلة عليها حرب المائة عام وهي في الواقع أكثر (١٣٣٧ – ١٤٥٣ م) بين فرنسا وبريطانيه ، أما الأسباب فكانت من التفاهة بحيث تثير الاشمئزاز مثل تتويج طفل رضيع ليكون ملكاً أو زواج أحد الملوك بملكة دولة أخرى فينبتج عنه الاختلاف على ولاية العهد . ناهيك بما إذا اعتنق أحد الملكين مذهباً يخالف الآخر !! وهكذا فإن الشعارات الجوفاء التي لا يمل الغرب من تكرارها عن السلام والاستقرار ما هي إلا تعبير عن الشعور بالذنب من تاريخ طويل لا يعرف الهدوء ولا الأمن .

- الفلسفة المثالية تسود القارة (وخاصة ألمانيا) والمذهب النفعي يسيطر على إنجلترا .
- خارطة أوربا تشهد تغييرات مفاجئة متلاحقة (إمبراطوريات تسقط وولايات تصبح إمبراطوريات ، دول تنكمش وأخرى تختفي...)[1].
- التعصب القومي يبلغ ذروته (جذور الفاشية ، جذور النازية ، الحركة الصهيونية) .
- ظهور الحركات المتطرفة (الماركسية ، العدمية ، الفوضوية) .

ولعل أكبر الأحداث الفكرية في أول القرن هو ظهور الفلسفة الوضعية التي نادى بها " كونت " ١٨٥٧م ديناً جديداً للإنسانية .

ثم تلاها البركان الذي تجاوبت أصداؤه في أنحاء القارة كلها وأحدث انقلاباً عاماً في الأفكار والآراء والمعتقدات التي توارثتها أوربا – بل الإنسانية – قروناً طويلة وهو البركان الذي فجره " داروين " في كتابه " أصل الأنواع " المشتمل على نظرية التطور العضوي والانتقاء الطبيعي .

وقد وصلت سيول الحمم التي قذفها البركان إلى أرجاء المعمورة كافة نتيجة جهود عظيمة قام بها أناس متعددو الاتجاهات لكنهم متفقو الدوافع – على ما

---

[1] وهذا شأن أوربا إلى اليوم فخريطتها السياسية تتعرض لتحديث مستمر لا نظير له في أي مكان من العالم وفي ذلك الدلالة الكافية على أنها أمم لا تعرف الطمأنينة والاستقرار لا على المستوى النفسي ولا على المستوى الاجتماعي !!

يبدو – ومن أبرزهم اليهود الثلاثة " ماركس ، فرويد ، دوركايم "[1] وتبعهم بالطبع جموع هائلة من المغررين (أو المسيرين !) في كل مكان .

هذا الحدث المذهل أثار حفيظة دعاة القديم وبالأخص رجال الكنيسة فاستجمعوا قواهم واستنجدوا بكل حميم وخاضوا معركة كان فيها حتفهم وانقشع الغبار عن سقوط آخر قلاع الكنيسة وخروجها كلياً عن ميدان الصراع الفكري العام واندحار الدعاة الأخلاقيين ودعاة الالتزام عامة ولم يبق لهم إلا شراذم في (حزام الإنجيل)[2] وشبهه .

وهكذا كان الغرور الهائل الذي أوحت به النظرية ، والثقة في التقدم المطلق في كل المجالات الذي أسهمت فيه الاكتشافات العلمية المذهلة حينئذٍ ، وكانت نهاية المطاف ظهور النظرية النسبية في أوائل القرن العشرين(١٩٠٥م).

---

[1] ورابعهم المتفلسف المعتوه " نيتشه " الذي استبطن عقيدة ((الشعب المختار)) فنادى بنظرية الإنسان الأعلى " سوبرمان " واستظهر بالداروينية ليقول ابن الرب قد مات – تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً – وإنما كان الميت هو رب الكنيسة الذي لا وجود له إلا في أذهان عبدة الصليب ، ولم يقبل عقل نيتشه – إن كان بقي لديه عقل – أن يدعو نفسه وقومه إلى دين الإسلام وهدي محمد صلى الله =عليه وسلم بل دعا إلى المجوسية وألف " هكذا تكلم زرادشت " وصدق الله تعالى حين قال عنهم { **يشترون الضلالة ويقولون هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً** } ! !

[2] الولايات المتعصبة في الجنوب الأمريكي وهي لا تزال حتى اليوم ترفض نظرية دارون وليس هذا هو المشكل في ذاته ولكنها تقر أن الله خلق الكون كله حوالي سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد – حسب تقاويم التوراة المختلفة !! وأشهر من دخل معهم في صراع حول تدريس هذه النظرية الرئيس الأمريكي "كلينتون" حين كان حاكماً لإحدى الولايات المذكورة (انظر التفصيل في كتاب :بل كلينتون) ومع هذا فالعلمانيون العرب لا يجدون مثالاً للتعصب الفكري والجمود العقلي إلا بعض الخطباء أو العلماء الذين يعترضون على الروايات التي تفيض بالزندقة والإلحاد سباً وشتماً لا فكراً وبحثاً !!

ونتج عن ذلك تنكر مخيف للماضي بكل مافيه وقطع متعمد للأواصر الرابطة به وثورة شاملة على الأخلاق والتقاليد ، لم يسبق لها نظير من قبل .

في هذا الجو المحموم تأرجح الأدب واستقر في اتجاه مضاد هو " الواقعية " .

والواقعية تعني أوضح ما تعني السقوط :

السقوط من خيال الرومانسية إلى أرض الواقع فالمحور ليس الشاعر بل العامل والفلاح والموظف الصغير .

والنــــزول من برج اللغة المعقدة المتأنقة إلى احتضان اللهجات المبتذلة .

والصراحة في عرض ما يدور في النفس الإنسانية بلا مواربـــة فالحبيبـــة هنـــا ليست ملاكاً تحوم حوله الأشواق المثالية بل هي جسد تظمأ له رغبات الجوارح ...

القضايا الكلية ليست ما يتعلق بحقيقة الوجود وغاية الإنسان فيه وإنمـــا هـــي الهدف اليومي للفرد العادي ...

وعلى المستوى العام بقيت في أوربا إلى مطلع القرن العشـــرين بقايـــا مـــن الأوضاع الاجتماعية الموروثة وشيء من القيم الشاحبة (الأســـرة ، الرابطـــة القومية ، احترام ظاهري للعهود والمواثيق ، نوع من الالتزام بالمبادئ الأخلاقية) وهذه البقايا عصفت بها الرياح الهوجاء التي حملت دخان الحرب العالمية الأولى إلى أرجاء القارة ومنها إلى أطراف العالم الأخرى .

وأسفرت تلك الحرب – مما أسفرت عنه – عن انكســـار حـــاد في نظـــرة الإنسانية إلى مصيرها وانقلبت الثقة والتفاؤل خيبة وتشاؤماً ، وأفاق الإنســـان الأوربي المخدر بنشوة التقدم المطلق على المدافع وهي تدمر مع القلاع والمـــدن

أحلامه بيوتيبيا[1] علمية إنسانية لقد كان فصلاً جديداً مـــن مســـرحية التـــاريخ الأوربي حيث اختفى مشهد "بروميثوس" وظهر مشهد "سيزيف" [2].

في هذا الوضع الخانق تنادت الأصوات للعودة إلى شيء من المسلمات الثابتة والالتزامات الإنسانية وظهرت نقاط " ويلسون " الأربع عشرة ثم الالتفات حول شبح عصبة الأمم .

وكانت فترة مابين الحربين من أعظم الأحقاب في التـــاريخ الأوربي هيجانـــاً وصراعاً ولاسيما في الميدان الفكري حيث تضـــاربت الـــدعاوى والاتجاهـــات وظهرت مذاهب جديدة في كل فن ومعايير جديدة في كل علـــم ومجموعـــات اجتماعية غريبة.

وفي ظل هذا الهيجان نمت ظاهرة الشعر الإنجليزي الحر وتـــألق "إليـــوت " [3] أبرز شعراء الحداثة ، أما الشعر الفرنسي الحر فقد ظهر قبل ذلك بكثير .

---

[1] اليوتوبيا = مصطلح فلسفي يقابل "المدنية الفاضلة" عند المتفلسفة الإسلاميين ، وهي تعبير عن أحلام وخيالات الفلاسفة المثاليين القانطين من صلاح البشرية والرافضين لهدى الله وشريعته كما أن متفلســـفة رجال الدين مثل "أوغسطين" حلموا بمدنية تجسد خيالاتهم .

[2] بروميثوس الرمز الأسطوري للإنسان الذي سرق النار من الآلهة ! (وهو ينطبق على أوربا في مرحلة النشوة بالانتصار على الكنيسة بواسطة العلم) وسيزيف أسطورة إغريقية أخرى مضمونها أن الأربـــاب حكمت على سيزيف بأن يحمل صخرة إلى قمة الجبل وكلما وصل القمة تدحرجت ثم عاد ليحملـــها إليها مرة أخرى فتتدحرج من جديد وهكذا دواليك ، وقد جعلها ألبير كامو رمزاً لفلسفته العبثية !!

[3] وقد ارتد إليوت إلى الكاثوليكية وأصبح يكتب كأشد القساوسة تعصباً ولكن الـــداخلين في جحـــر الضب من الحداثيين العرب يتغافلون عن هذا ، ونظيره في ذلك الكاتب "جراهام جرين" الذي ارتد عن الاشتراكية إلى الكاثوليكية ، وهكذا نجد العودة إلى الدين الباطل غير مستنكرة في الغرب أما العودة إلى دين الله فهي في نظر المتعلمنين ظلامية ونكوص وتخلف !!

وفي الجانب الآخر قفز العلم التجريبي قفزات هائلة كان من أعظمها ما سمي اكتشاف الذرة سنة ١٩٣٨ م .

وتدور السنون ولم يدرك أكثر الناس مغزى هذا الاكتشاف حتى انفجرت أعنف حروب التاريخ وأشدها هولاً (الحرب العالمية الثانية) هناك ذهلت أوربا بجحافل هتلر وهي تدك باريس وقذائفه وهي تغطي سماء لندن وكتائبه وهي تسحق لينينجراد ولكن الذهول الأكبر كان ساعة الانتصار حيث سقطت القنبلة الذرية على هيروشيما[١] ، وكان إعلان انتصار الحلفاء يعني في الوقت نفسه إعلان وقوف الإنسانية على حافة الهاوية الكبرى .

وفي هذه الأجواء الخانقة والمشاهد الفظيعة ظهرت ألوان من الآراء والمذاهب أكثر قتامة وعبوساً وأكثر شعوراً بتفاهة الحياة وعبثها .

لقد انهارت الآمال الكبرى في التقدم والثقة في عقل الإنسان !!

أما الآلة التي أراحت الإنسان من عناء العمل اليدوي المرهق فقد أصبحت صنماً يسحق إنسانية الإنسان بل معبوداً جباراً ينتقم من الجنس الإنساني بوحشية لا نظير لها في التاريخ كله !!

لم تعد المأساة تتمثل في " أرض يباب " فحسب بل أصبحت " طاعوناً " [٢] ، واتسعت دائرة البلاء بواسطة وسائل الاتصال المتقدمة والتدفق المسيطر للمعلومات ليصبح الإنسان في جزر الهند السحيقة وحوض الأمازون وأحراش

---

[1] ألقت أمريكا (التي لا تفتؤ تتهم المسلمين بالإرهاب وتتشدق بحظر أسلحة الدمار الشامل) تلك القنبلة الجهنمية على المستشفى العام في المدينة فتبخر مثل نقطة ماء على صفيح ملتهب وتفحم ما حوله من المدينة حيث لم يكن أي قاعدة عسكرية و لم يكن من بين مئات من الضحايا عسكريون إلا من كان موجوداً اتفاقاً أو في إجازة !!

[2] " اليباب " قصيدة إليوت المشهورة فيما بين الحربين و " الطاعون " رواية كامو عن الحرب الثانية .

أفريقية يعيش مأساة الوجود الحائر والمستقبل المعتم ويرى هذا الشبح الرهيب معلقاً فوق رأسه .

أما داخل أوربا نفسها فقد أصبح الفرد العادي يحمل الهموم الكبرى التي ما كان يكابدها في عصور خلت إلا قلة من الفلاسفة التشاؤميين أمثال "شبنجلر وأرويل" ويعيش الأزمة الخانقة التي ذهبت بعقل نيتشه ودمرت نفسية شوبنهاور وألجأت تولستوي إلى المنفى . حتى المسرح الذي كان وسيلة الناس للهروب من الواقع الكالح إلى ميادين من المتعة واللهو و إشغال الوقت تحول (ومعه السينما) إلى مسرح عبث ووجودية وفوضوية وعدمية ... الخ .

لم يعد أحد يتحدث عن " طرطوف " بل عن " دماء الخنازير " وأمثالها [١].

إنها بأصرح عبارة = مأساة أمة لم تسلم وجهها إلى الله ولم تعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

إن الذنوب والمعاصي تدمر الأمة وتنزل بها من موجبات العقوبة ما لا يعلمه إلا الله فكيف بالإلحاد الصريح المتدفق موجات إثر موجات في ذلك المحيط الهائج المضطرب.

ومع اتساع الهوة بين الواقع المعاصر – بيأسه وقنوطه ومعضلاته المستعصية – وبين النظريات الوضعية الشمولي منها والنسبي ظهر جلياً عقم الفلسفة وارتدت في كرة خاسرة يصدق عليها قول أحد كبارها ((إنها ثرثرة تهدف إلى التخلص من الثرثرة)) وتسرب فراغ المضمون هذا إلى الملجأ الهش الذي هرب إليه فلاسفة اللامعقول وهو " الأدب " وكان الدخول من باب " النقد " الذي باسمه

---

[1] طرطوف : ملهاة لموليير ، ودماء الخنازير مسرحية عبثية كان لها دوي كبير في الستينيات وأمثالها الآن كثير .

تحولت اللغة إلى موضوع رئيس لجدل فلسفي عقيم وكان استدراج فروع الأدب كافة إلى هذا المستنقع متلاحقاً وسريعاً ، ولعل أوضح الأدلة على ذلك انسياق الماركسية له رغم شموليتها المغالية واعتسافها المطلق للأدب في إطار" الواقعية الاشتراكية " التي لا تزيد عن كونها نموذجاً مدرسياً معاصراً – كما عبر جارودي - .

وهكذا تحول الاهتمام (وبخاصة في فرنسا) عن موضوع " الأنا والعالم ، والوجود ، والمادة ، والعقل ... " الخ إلى " النص ، الشكل ، التركيب ، البنية ، الرمز ، الأسطورة ... " الخ كما تحولت الأفكار من المعارك التقليدية بين الفلسفات المنهجية كالحال بين الماركسية والوجودية إلى ضروب جديدة متنافرة من التقلبات الفكرية والجدل غير ذي الموضوع ، وهو ما شهده العقد السادس الميلادي الذي يمكن أن يوصف بأنه " عقد البنيوية " !!

ففي الستينيات برزت البنيوية منافساً للوجودية من جهة ، وتطويراً للمادية الجدلية من جهة أخرى ، وتغلغلت في كثير من العلوم حتى ظهر منافسها "التفكيكية" في السبعينيات .

واختلفت آراء البنيويين في البنيوية وذهب بها كل منهم مذهبه ، وحدثت نتيجة لذلك فوضى فكرية ما تزال تغمر الفكر الغربي ، وقد جلبها اليسار العربي ومؤسساته ، وبعض الاتجاهات الوجودية الملفقة إلى العالم العربي ، حتى اكتظت بها الملاحق الأدبية في الجرائد اليومية فضلاً عما عداها ، هذا في حين أن الزمن قد عفى عليها في بلادها .

ونظراً لما حظيت به النظرية – ولا تزال – في عالمنا العربي ولكونها تمثل المعلم الفاصل بين مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة فسوف ينحصر جل اهتمامنا هنا بها مع شيء من التفصيل عن مدارسها وحلقاتها وتطبيقاتها في فروع المعرفة :-

١ - مدرسة جنيف : في القرن التاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي اليهودي " دوركايم " بالنظرية المسماة " العقل الجمعي " ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها " أشياء مستقلة " وتبعاً لذلك ظهر الباحث اللغوي السويسري " فرديناد دي سوسيور " بنظريته في " ظاهرة اللغة " حيث جرد اللغة من دلالاتها الإشارية المألوفة وعدها نظاماً من الرموز يقوم على علاقات ثنائية ، ومن هنا ظهرت فكرة " البنية " ومن أبرز ما قرره سوسيور بقوة مبدأ " اعتباطية الرمز اللغوي " [1] وهو ما يعني أن أشكال التواصل الإنساني ما هي إلا أنظمة تتكون من مجموعة من العلاقات التعسفية ، أي العلاقات التي لا ترتبط ارتباطاً طبيعياً أو منطقياً أو وظيفياً بمدلولات العالم الطبيعي " [2] وأن " كل نظام لغوي يعتمد على مبدأ لا معقول من اعتباطية الرمز وتعسفه " أي تماماً كما يعتبط العقل الجمعي عند " دوركايم " ويتعسف فيفرض على الناس ماهو خارج عن ذواتهم .

---

[1] انظر البنائية ، د . صلاح فضل : ص ٣٩ . ومن هنا ينكر الحداثيون المجاز ، وقد خدعوا بذلك بعض طلبة العلم إذ تمسحوا بموافقة شيخ الإسلام وابن القيم – رحمهما الله ، وإنما شيخهم سوسيور !! وكلام شيخ الإسلام في اللغة أجل من هذه النظريات وأعمق وهو جدير بأن تفرد له رسائل علمية من المتخصصين في هذا الميدان .

[2] انظر مجلة فصول م: ٥ ، ع: ٤ ، ص ١٤٤ .

ومن هنا انبعثت فكرة " السيمولوجيا " أي علم الدلالة أو العلامة والإيحاء وتطورت فيما بعد .

٢ - المدرسة الشكلية الروسية : ويرجع أصلها إلى "حلقة موسكو اللغوية" وهي نوع من الإلحاد غير الماركسي في روسيا وقد أدمجها استالين قسراً ضمن الواقعية الاشتراكية لكن نفراً من روادها هاجروا إلى الغرب وهناك طوروا الفكرة ، ومنهم معلمها الشهير " جاكوبسون " ، ومن أهم آرائها " تحرير الكلمة الشعرية من الاتجاهات الفلسفية والدينية " [١]. والانطلاق من " دراسة العمل الأدبي في ذاته " فهي تؤكد " أن العمل الأدبي يتجاوز نفسية مبدعه ويكتسب خلال عملية الموضعة الفنية وجوده الخاص المستقل " [٢]

وتؤكد أن " العمل الفني لا يتطابق بشكل كامل مع الهيكل العقلي للمؤلف ولا المتلقي " أو كما يقول : " موخاروفسكي " فإن " الأنا الشاعر لا ينطبق على أية شخصية فعلية ملموسة ولا حتى شخصية المؤلف نفسه إنه محور تركيب القصيدة الموضوع " [٣]

هذا هو الأساس الذي بالاعتماد عليه يحمل البنيويون النصوص فلسفات وأفكاراً ورؤى لم تخطر لقائلها ببال بل لم تظهر في عصره – إن كان قديماً – وعليه نادى "رولات بارت" أكبر ناقد في أوربا كما وصفه الدكتور الغذامي بنظرية "موت المؤلف" !!

[1] البنائية ص ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ .

[2] المصدر السابق .

[3] نفس المصدر .

وهكذا ابتدأت الشكلية الروسية من دعوتها إلى استقلال الكلمة الشعرية كشيء قائمٍ بذاته ، وانتهت إلى استقلال العمل الأدبي عن نفسية مؤلفه من ناحية ، وعن الموضوع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته وإجراءاته الخاصة من ناحية أخرى " [1]

وأكدت هذه المدرسة ضمن استقلالية العمل الأدبي أن لهذا العمل زمنه الخاص وعارضت "الأفكار الأكاديمية التقليدية" عن تطور الأدب ومساره التقدمي المطرد ، وأنكرت فكرة التوالي الطبيعي للمذاهب الأدبية أو توالدها فيما بينها ، وحرصت على إبراز حقيقة عدم الاستقرار في الأشكال الأدبية " [2]

وغايرت المدرسة الشكلية الاتجاهات النقدية الأخرى التي تهتم بالمضمون حيث صرفت الاهتمام الأكبر إلى الشكل جاعلة إياه وسيلة للوعي وتجديد الرؤية ، فوظيفة الفن عندها ليس إعطاء رؤية ولا تصوير الواقع أو التعبير عن العالم الطبيعي الموضوعي وإنما هي " استخدام اللغة بطريقة جديدة بحيث يثير لدينا وعياً باللغة من حيث هي لغة ، ومن خلال هذا الوعي يتجدد الوعي بدلالات اللغة ، هذا الوعي الذي تطمسه العادة والرتابة على حد تعبير "جورج لوكاش" [3]

وهكذا نصل إلى الفكرة نفسها "موت المؤلف" كما نادى بها "رولات بارت"[4]

---

1 البنائية ص ٦٤ .

2 البنائية ص ١٠١ .

3 انظر فصول م: ٥ ، ع: ٤ ، ص ١٤٤ .

4 واحتذاها عبد الله الغذامي ثم تلميذه السريحي صاحب " الكتابة خارج الأقواس " حيث دعا إلى تفجير اللغة ومضى على اعتبار الشاعر مفعولاً به واللغة هي الفاعل !!

٣ - حلقات "براغ ، كوبنهاجن ، نيويورك " اللغوية .

ويهمنا منها أمور نوجزها ما أمكن :-

أ – أن أصلها جميعاً هو الشكلية الروسية نفسها ، وخصوصاً " جاكبسون " المحرك الأساسي لحركة براغ حيث كان يعمل ملحقاً ثقافياً لروسيا بها [١] ، ثم أسست على منوالها مدرسة " كوبنهاجن " [٢].

ثم حلقة " نيويورك " التي أسست بعد هجرة " جاكوبسون " إليها حيث التقى بـ "كلود ليفي شتراوس" [٣] وهناك نبت من علاقتهما الفكرية الكثير من عناصر البنيوية الحديثة وأركانها ، ثم ما لبث شتراوس أن أصبح زعيم البنيوية الفرنسية كما سيأتي .

ونبغ من هذه الحلقة " نعوم جومسكي " أبرز ممثلي البنيوية الأمريكية !!

وهنا لابد أن يستوقفنا دور " جاكوبسون " الكبير في تأسيس وتطوير البنيوية حتى أن بعض الباحثين يلخص ((تاريخ نشأة البنائية وتشكلاتها المختلفة في شخصيته ومغامراته العلمية ابتداءً من مطلع شبابه في موسكو حتى تخرج على يديه أجيال من الباحثين في أوربا وأمريكا ، وأصبح الحجة الأولى والمرجع الأخير في علم اللغة الحديث)) [٤] .

فهل الأمر مصادفة ؟ أم عبقرية فردية ؟ أم أن هذه الحركة والشهرة الواسعة وراءها ما وراءها ؟!

---

[1] انظر البنائية ص ١٠٩ . وفصول العدد السابق ص ١٤٥ .
[2] البنائية ص ١٢٣ .
[3] ~ ص ١٤٥ .
[4] البنائية ص ١١٠ .

لعل الإجابة تأتينا من معرفة أن كلاً من زعيمي المدرستين الأمريكية والفرنسية "جومسكي وشتراوس" يهودي بل إن جومسكي تربى في الأرض المحتلة [١] .

ومع أنني لم أجد من خلال بحثي المحدود ما يدل على دين "جاكوبسون" لكن ما علمناه عن دوره وما نعلمه عن دور المؤسسات المريبة في احتضان الأفكار الشاذة وتوجيهها وما هو واضح من صلته بالماركسية [٢] التي هي فكرة يهودية يجعلنا على الأقل نستريب في انتمائه ، ونتساءل أليس من السذاجة أن نغض الطرف عن كون رجال هذا المذهب يهوداً ورموزه توراتية ونحمل المصادفة وحدها عبء ذلك ؟؟ !!

ونزيد : أليست النفسية اليهودية منذ حلول غضب الله عليها مسؤولة عن كثير من المفاسد والشرور في الفكر والواقع من غير اشتراط دافع للإفساد عمداً بالضرورة ، فليس من شرط الأفاعي (هكذا كما سماهم المسيح) لكي تكون شريرة أن تضع بروتوكولات للإيقاع بالحمام !!

ب – المدرسة الأمريكية " نيويورك ":

"هي التي لقيت أكبر قدر من الذيوع في العالم العربي" كما يقول الدكتور صلاح فضل [٣] .

---

[1] تكونت آراء ه كما يقول الدكتور عبده الراجحي وسط ما يشير إليه هو باسم الجماعة اليهودية الراديكالية في نيويورك ، وبعض أبحاثه في العبرية الحديثة ، على أن له موقفاً من الصهيونية والدولة اليهودية في الأرض المحتلة .

[2] كما في تقديمه لكتاب " الماركسية وفلسفة اللغة " تأليف ميخائيل باختين وترجمة محمد البكري ويمنى العيد .

[3] البنائية : ص ١٤٠ .

ولعل الأصح - أن يقال في المشرق العربي - وهي التي تربى في أحضانها الكاتب النصراني "كمال أبو ديب" [1] الذي سار على خطاه الدكتور عبد الله الغذامي وتلميذه السريحي عندنا [2] .

ج – الاتجاهات التطويرية للبنيوية [3]:

انبثق من البنيوية اتجاهات قامت بتطوير الفلسفات المعروفة وفق منهج بنيوي، أي بصياغة جديدة للفلسفات والنظريات المشهورة ومن رواد تلك الاتجاهات (إضافة إلى شتراوس وتطويره للدراسات الانتربولوجية) -:

١- "لوى التوسير" أعاد صياغة الماركسية بحيث تقرأ من منظور بنيوي لا منظور هيجلي!! وقريب منه "هنري لوفيفر" الزعيم الماركسي الحركي .

٢- "جاك لاكان " أعاد صياغة الفرويدية ، بل إن كتاباته تعد في مجملها صدى لتلك النظرية ، خاصة رسالته " وراء مبدأ الواقع " التي كان عنوانها محاكاة لعنوان كتاب فرويد " وراء مبدأ اللذة " .

٣- " ميشل فوكو " الذي صاغ نظرية جديدة في اللغة وأصلها وتراكيبها ووظيفتها ، من خلال مصدره الخاص لاستكناه الحقيقية

---

[1] انظر مقدمة كتابه الضخم " الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي " .

[2] انظر " الخطيئة والتكفير " و " الكتابة خارج الأقواس " !

[3] انظر " عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو " : آديت كريزويل ترجمة جابر عصفور ، والمذاهب الفلسفية المعاصرة : سماح رافع، فصل البنائية ، والبنائية : ص ٢١٠ – ٢٦٦ ، والبنيوية : جان بياجيه ، ترجمة عارف وبشير ، والنقد البنيوي للحكاية : رولات بارت ، ترجمة آنطون أبو زيد .

الإنسانية وهو "الجنون " معلناً أن المجنون يمكن أن يؤدي دور النبي عند المؤمنين بالأديان!! [١]

٤ - " رولان بارت " صاغ نظرية بنيوية لتغير الأزياء (الموضة) هي في جزء منها تطوير لآراء " دوركايم " كما أحدث أثراً بالغاً في النقد الأدبي خاصة بعد أن أصبح عضواً في مجلة [TELQUE] صوت الاتجاه الذي يسمى ما بعد البنيوية أو (التفكيكيين) الذين ينتمي إليهم الغذامي في كتابه السالف ذكره .

٣ - المدرسة الفرنسية : وهي المدرسة الرائجة في القارة الأوربية والمغرب العربي وانتشرت في المشرق العربي تبعاً لانتشار الحداثة ، ولن نفصل القول فيها وإنما نوجز أهم اتجاهاتها :

١ - البنيوية الانتربولوجية : (أي التي تبحث في الإنسان وتطور حياته وعاداته الاجتماعية) وزعيمها هو اليهودي "كلود ليفي شتراوس" السالف الذكر ، وقد طور اتجاهات دوركايم وفريزر عن الأساطير والعادات الاجتماعية للبدائيين وفق منظوره البنيوي وهو كثيرا ما يعلن عن ولائه الماركسي واعتناقه لمبادئ المادية الجدلية ، كما أنه يميل إلى البرنامج

---

[1] الجامع المشترك بين كل هذه الفلسفات هو الثورة على المعايير العقلية والحسية ، لكن كلاً منها سلك سبيله الخاص (فرويد : العقل الباطن والأحلام ، كاميو وسارتر : الأساطير ، شتراوس : السحرة والكهان ، برجسون : الحدس ، فوكو : الجنون) والحمد لله على نعمة الإسلام .

الاشتراكي سياسياً واقتصادياً ويرى أن مستقبل الغرب والعالم كله مرهون بانتصار الاشتراكية [١].

٢ - الاتجاه الماركسي : ويمثله رواد الروس المهاجرين إلى فرنسا أو الفرنسيين الماركسيين ومن أشهرهم " لوسيان جولدمان " و " لوكاش " وهما مهاجران ، وتسمى بنيويتهما " البنيوية التكوينية أو التوليدية " في حين تسمى بنيوية شومسكي " التحويلية " ! ، وقد استمدا النظرية من " جان بياجيه " مؤسسها الأصلي ولكنهما حولاها إلى ماركسية [٢].

[1] انظر " البنائية ، ص ٢٨٤ .

[2] انظر " البنيوية التكوينية " : الفصلان الأول والأخير ، ترجمة محمد سبيلا ، المغرب .

البنيوية فلسفة ومنهج

زعم الدكتور كمال أبو ديب أن البنيوية " ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود " وعلى هذا الأساس اعتمد الحداثيون في الدفاع عنها كالغذامي والسريحي وتصريحهما في أكثر من مناسبة بانتهاج هذا المنهج يجعلنا نبين حقيقة هذا الادعاء [١] .

جاء في " مجلة فصول " ذات الاتجاه الحداثي المعروف " يتفق السيد زكريا إبراهيم مع السيد ياسين وغيره – في النظر إلى – البنيوية على أنها تنطوي على موقف عقائدي أو تمثل منظوراً خاصاً "[٢]، هذا والدكتور زكريا إبراهيم (نصراني) من أكبر المتخصصين في هذا المجال وله كتابه المتعمق "مشكلة البنية" وقد تحدث فيه عن ((انزلاق البنيوية من مجال المنهجية العلمية إلى مجال " الأيدلوجيا " وآية ذلك أن المنظور الفكري الذي انطوت عليه هذه البنيوية الجديدة قد جاء مؤكداً للدعوى القائلة بأن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد إنكاراً لقدرة البشر على صنع تاريخهم الخاص ، ورفضاً لكل نزعة إنسانية ، ومن ثم فقد راح البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة البنيوية هو إعلان موت الإنسان))[٣] .

---

[1] أما " الواقعيون " عندنا فهم نسخة من اليساريين المنتمين في أي مكان ولهذا فلا كلام لنا معهم .

[2] فصول ، م : ٥ ، ع : ٤ ، ص ١٤٥ .

[3] فصول العدد نفسه .

هذا مع أننا نسأل أبا ديب هذا : ماهي الفلسفة إن لم تكن طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود ؟!

ويقول " جان ماري بنو "في كتابه " الثورة البنيوية " : ((إذا كان الوجوديون قد تخلصوا من " الله " فقد نجح سوسير في التخلص من الإنسان))

.

وقال : ((كان الإنسان خالق المعنى ومصدره الحي ولكنه اختفى تماماً في ظل العلم الجديد الذي جعل المعنى حصيلة مجموعة من العلاقات اللغوية البنيوية والسيميوليجية التي تفرز العلاقات وتحدد المعاني ، وفي ظل هذا التصور أصبح الإنسان إفرازاً لغوياً بدلاً منه صانعاً للغة)) .

إنها جبرية من نوع غريب لم تعرف البشرية له نظيراً من قبل !!

وفي مقال فصول : ((وربما كان أكبر دليل على أن البنيوية قد اكتسبت طابع المنظور الفكري أو الموقف العقائدي هو هجوم بعض البنيويين وعلى رأسهم " ليفي شتراوس " على " سارتر " والوجوديين ، ودحض آراءهم في التقدم والمبادئ التاريخية ويتجلى هذا الطابع العقائدي أيضاً في محاولة بعضهم وعلى رأسهم " التوسير " إعطاء تفسير جديد للماركسية بحيث حولها من ... منهج عمل ثوري يرتكز على الإنسان إلى نظرية رجعية تؤكد حتمية سيادة نظام لا سلطان للإنسان عليه ... الخ))

كما أن الدكتور صلاح فضل عقد مبحثاً بعنوان ((محاولة عقد زواج بين البنائية والماركسية)) [1].

وهنا نشير إلى ما تنضح به كتابات السريحي والغذامي ومن لف لفهم من إضفاء القوة المطلقة للغة وسلب لإرادة الإنسان (خاصة الشاعر) حتى من نسبة وضع لفظة مكان أخرى !![2]فأي ربوبية قهرية يريد هؤلاء أن يجعلوها للغة !!

على أن مما يؤكد أن البنيوية فلسفة ذات تطبيقات ثورية واقعية ارتباطها ببعض الأحداث السياسية مما كان سبباً في ظهور نقيضها "التفكيكية" .

ذلك أن (التفكيكية هي رد فعل لانهيار البنيوية في فرنسا بعد أحداث ١٩٦٨ م . فهي إفراز طبيعي لحالة الإحباط والكفر بالنظريات الشاملة المتماسكة ومنها الماركسية التي اجتاحت فرنسا في تلك الآونة .

لقد قامت البنيوية على فكرة سيادة منطق البنية المتماسكة فوق الإنسان والمتغيرات وكانت صدمتها شديدة حيث جعلتها أحداث الثورة الطلابية في أوربا بصفة عامة في أواخر السبعينيات وفي فرنسا بصفة خاصة في ١٩٦٨ م تدرك الدلالات الحزينة لنظريتها التي أثبتت الأيام صحتها أي حين أثبتت البنية السياسية في فرنسا قوتها أمام أي معارضة ، وأصبحت فكرة البنية عدداً لدوداً

---

[1] البنائية : ص ٢٨١ – ٢٨٦ .

[2] وهذا ما ظهر جلياً في أطروحة السريحي لدرجة الماجستير وكذلك رسالة الدكتوراه التي رفضها مجلس الجامعة ، وكلفه بصياغة جديدة لها يحد من غلوه في فاعلية اللغة وقهرها !!

للمفكرين ، وارتد الكثيرون عن البنيوية كما فعل الناقد رولان بارت في كتاباته الأخيرة واتجه الكثيرون إلى الهجوم على جميع الأنظمة والنظريات العقائدية الــتي تخنق الفرد)[١] .

وهذا النص الصريح يذكرنا بما حصل من انهيار فكرة القومية العربية بعد هزيمة ١٩٦٧ م ، والسؤال هو مالذي ينــهار بتــأثير الأحــداث السياسية ، أهي المناهج المجردة أم الفلسفات التي قامت عليهــا تلــك السياسات !!

فإن أصر القوم على تسميتها مناهج لا فلسفات فلن نجادل في مجــرد الألفاظ، فالمنهج الذي تقوم عليه أنظمة شمولية تارة وتسقط تارة هــو "عقيدة" والسلام .

ومن هنا كان السؤال الذي جعله الدكتور صلاح فضل عنواناً لمبحث خاص ((هل البنائية تعبير عن فشل اليسار ؟)) [٢]

ومع كل ماسبق من نشأة البنيوية وما تطور عنها في ســياق تــاريخي معرفي مغاير ومناقض لما تنتمي إليه هذه الأمة فلا بأس أن نتنــــزل في الجدل ونفرض أن البنيوية ليست سوى منهج مجــرد في الدراســات اللغوية والأدبية ونسأل :

أليست البنيوية منهجاً مطرداً بقوانين وتحليلات شموليــة قاطعــة لا تستثني قائلاً ولا نصاً ولا لغةً ؟

---

[1] فصول العدد السابق : ص ١٤٨ .

[2] ص ٢٨٧ – ٢٨٩ .

ثم أليس ((الموقف الألسني يجرد كل قاعدة من قدسيتها بل لا يـــرى قاعدة إلا فيما هو متداول وممارس من طرف المجموعات البشرية ، وفي بعض الأحيان يرى تكسير القاعدة قاعدة))[1] .

إن كل من يشك في الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب هو في نظـــر البنيويين عدو لدود ، ورجعي تقليدي ، ذلك أن قوة النظرية تســـتمد من شموليتها واطراد قانونها بخلاف سائر المناهج والاتجاهـــات المنطقيـــة كما يزعمون وعليه فليس لدى البنيويين نص مقدس لا يخضع لنظريتهم وتبعاً لذلك جرت دراسة التوراة والإنجيل بنيوياً مثلـــها مثـــل ســـائر النصوص ، ومن هنا ندرك مدى خطورة الدعوة إلى البنيوية وتطبيقاهتـــا على اللغة العربية التي أسمى ما فيها وذروة نصوصها باتفاق كل نـــاطق بها أو دارس لها هو " النص الموحى " أي كلام الله ورسوله صـــلى الله عليه وسلم[2] .

كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظريـــة مـــوت المؤلـــف واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كل قارئ كما يشـــاء حيث أنه لا مانع لدى البنيوية من أن يكون له تفسيرات بعدد القـــراء بل أكثر من ذلك .

---

[1] المصدر السابق : ص ٤٠٥ .

[2] زعم بعض الحداثيين في عكاظ عدد ٧٣٣٦ ذو القعدة ١٤٠٦ هـــ أن جناح الذل في قوله تعالى { **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** } - الذي استشهد به أبو تمام قديماً على جنوحه إلى الإعراب – زعم الكاتب أنه نفس التركيب الحداثي "السفينة الصخر" مثلاً!!

فانظر إلى ما يقوله الدكتور الغذامي - بعد أن أطال في تقرير هـذا الأمر وجعله من أعظم ميزات المنهج وأسمى خصائصه - :

((الكاتب صاغ النص حسب معجمه الألسني ، وكل كلمة من هذا المعجم تحمل معها تاريخاً مديداً ومتنوعاً وعى الكاتب بعضه وغاب عنه بعضه الآخر ، ولكن هذا الغائب إنما غاب عن ذهن الكاتب ولم يغب عن الكلمة التي تظل حبلى بكل تاريخياتها ، والقارئ حينما يستقبل النص فإنه يتلقاه حسب معجمه وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب حينما أبدع نصه ، ومن هنا تتنوع الدلالة وتتضاعف ، ويتمكن النص من اكتشاف قيم جديدة على يد القارئ ، وتختلف هذه القيم وتتنوع من قارئ وآخر بل عند قارئ واحد في أزمنة متفاوته ، وكل هذه التنوعات هي دلالات للنص حتى وإن تناقضت مع بعضها البعض))[١] .

أيقبل مسلم تطبيق هذا الكلام على القرآن ؟

إن إقرار تطبيقه على شعر العرب ولغتهم وهدم قواعدهم النحوية والبلاغية جملة لابد أن يؤدي إلى ذلك حتماً .

إن موقف طه حسين ومن وراءه أخف من هذا الموقف ولو من بعض الوجوه ، ذلك أنه – وشيوخه المستشرقين – حين أرادوا هدم البيان القرآني توصلاً إلى هدم الإسلام اتخذوا ذريعة لذلك إنكار الشعر الجاهلي في ذات نصوصه ، أما هذا المنهج البنيوي فهو يتنكر للقواعد

[1] الخطيئة والتكفير ص ٧٩ .

والأصول والمعايير النحوية واللغوية بل للفطرة العربية من أساسها إنه يستبقي النصوص – أشباحاً وهلاماً – فقط !!

فالأولون ساروا على منهج كفار قريش في الزعم بأن النص القرآني ليس منزلاً من عند الله والبنيويون حاكوا الباطنية في تفسيره كما يشاؤون بلا ضابط من عقل أو نقل .

وإنه لو قدر للحداثة العربية أن تسير على الدرب نفسه الذي سلكته نظيرتها التركية[1] لكان معنى ذلك المسخ الكامل لا للغة فحسب بل لوجه الإسلام كله.

والحداثة العربية في جميع صورها إنما راجت لسببين أساسين هما :-

١ - جنوح الناس إلى الخروج عن المألوف ولهاثهم خلف " العصرنة " !!

٢ - الخلط بين الحداثة – وإن شئت فقل بين الهدم – والتجديد .

---

[1] مرت الحداثة التركية التي انطلقت من " جيتو " سلانيك بثلاث مراحل :-

١ - مرحلة تجديد متأثرة بالغرب وتمثلها المجموعة التي أصدرت مجلة " ثروة الفنون " سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥ م .

٢ - مرحلة ما سمي " اللغة الحديثة " وهي دعوة للتخلي عن قواعد اللغة والصرف والنحو والعروض ... وتمثلها مجموعة " الفجر الآتي " وهي تشبه كثيراً الحداثة العربية في مرحلتها الراهنة .

٣ - الاتجاه الحداثي المتطرف الذي أوصل اللغة التركية إلى مرحلة التلاشي والاندثار وتمثله مجموعة " الأدب الشعبي " التي تطورت لتصبح سلطة قاهرة تقضي على الحروف العربية والأصالة التركية بكل معانيها . (انظر : مقدمة الأدب التركي الحديث : د . يحيى خشاب) .

وهما يرجعان في الحقيقة إلى أمر واحد عاشته أوربا وتعيشه كل الأمم لأنه خطأ إنساني مشترك يمكن أن يقع فيه كل من لا يملك المعيار الرباني الثابت ، وهو خطأ الاعتقاد في التقدم المطلق واعتبار الـــزمن وحـــده معياراً للحكم على الأشياء .

في حين أن نظرة عقلية عجلى تؤكد أن الحداثة هي نفسها مفهـــوم نسبي بما أن حاضرنا هو ماضي الغد !!

فكما رأينا – في أوربا – كان لوثر أكبر الحداثيين في عصره وهـــو الآن نموذج للبروتستانتي الكلاسيكي .

ودانتي كان حداثياً كبيراً في زمانه وهـــو الآن مثـــال الكلاســـيكية الإنسانية .

وكان ديكارت حداثي زمانه بالنسبة للفلســـفة العقليـــة ، ثم كـــان الرومانسيون في القرن الثامن عشر نموذج الحداثة الثائرة على العقلانية الجامدة !

وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الرمزية ثورة حداثيـــة علـــى الاتجاهات جميعها .

ولما ظهرت مدارس " اللامعقول " المتنوعة (السوريالية ، العبثيـــة ، العدمية ، الوجودية) كتب النقاد عنها باعتبارها أكبر انقلاب معـــرفي حداثي ، وأسمى سارتر مجلته "العصور الحديثة" !!

وفي الستينيات – كما أسلفنا – زعمت البنيوية أنها الثورة الحداثيـــة التي لم يشهد التاريخ لها من نظير .

ولكن نقيضها " التفكيكية " سرعان ما ظهر في أواخر العقد نفسه مدعياً الدعوى نفسها !!

وفي أمريكا كانت موجة ((الهيبيز)) آخر صرعة في نظر مفكري ذلك العقد والآن تلاشت وارتد كثيرون للأصولية الأنجيلية !!

وهذا كله غير حداثة ماركس التي حقرت كل ما قبلها ، وعندما جاء "لينين" صاغها بشكل تقدمي " حداثي " أكثر عصرية ، ثم جاء عصر ستالين وتبنى اتحاد الكتاب السوفيت آراءه الأكثر حداثة ، وبظهور إعادة البناء "الغورباتشوفية" لا نستبعد أن يصف الشيوعيون نظريتهم الجديدة بأنها حداثية للغاية !! وهكذا

إنه العقل البشري المحدود الضعيف الذي يتخيل كل مرحلة من مراحله أنها نهاية التاريخ والدهر أعظم من ذلك وأطول لو كانوا يفقهون

ولا نستطيع أن نجرد الحداثيين العرب عن فهم هذه الحقيقة لكنهم بذكائهم اللماح لم ينسوا أن اطراد " الجدلية " إلى نهاية التاريخ = نهاية اللغة ، يمكنه حل المأزق بافتراض أن اختفاء عنصر النقيض في المرحلة الأخيرة من الصراع الأبدي يؤدي إلى نهاية لا محدودة !!

ولذلك تعجل هؤلاء الخطى وطالبوا – من الآن – بالوصول بالمعرفة إلى تلاشيها المطلق وباللغة إلى تجريدها المطلق !!

وبتعبير الحداثيين ((إن الوصول بالمعرفة السائدة والنمطية إلى تلاشيها المطلق ينفي احتمال ظهور أي وضع معرفي استاتيكي (ثابت) وسيظل الانفجار المعرفي الحداثي هو السائد والوحيد إلى ما لا نهاية)) !!

وحسبك بهذه النتيجة من باطل = لا تنكره بدائه العقول فحسب بل يرفضه الواقع الحي في كل البلاد ولاسيما في الأدب العربي ، إنه ليس من سنة الله كما أن الجمود المطلق ليس من سنته .

فالنشاط الأدبي العربي هو جزء من النشاط الحيوي العام الذي يخضع للمبدأ الكلي المطلق في التصور الإسلامي " الحركة حول محور ثابت " فالتراث الأدبي في جملته يحوي عناصر حركية مستمرة (ديناميكية) ولكنها تنطلق في حركتها من أصول ثابتة وتلتزم بمعايير ثابتة. وهكذا يتجلى المنهج الفريد الجامع بين الاستقرار والمرونة ، لا التصور الجدلي الأدبي العقيم .

إن من دلالات الإبداع والعبقرية أن يأتي الأديب بتلك النماذج الفائقة التي لا يستطيع سائر الناس الإتيان بمثلها مع التزامه بنفس المعايير أو الأساليب التي يعرفون !

يظهر هذا المنهج الفذ في الشعر العربي الذي توهم كثيرون من الداخلين في جحر الضب أن معاييره تضيق عن الإبداع وتستلزم الجمود !!

كلا . إن الإبداع تسابق ، وما من سباق إلا وله مسارات وحواجز وضوابط وإلا كان كل ماشٍ في الشارع. متسابقاً ولنأخذ مثالاً الالتزام بالبحور الشعرية المعروفة ، أيّ ضيق أو جمود فيها؟ إنها سعة لا نظير لها مطلقاً في شعر أي أمة من الأمم مع الالتزام في الوقت نفسه بمعايير جمالية لا نظير لها كذلك .

فالعروض العربي يتألف من ستة عشر بحراً والبحر الواحد – غالباً – يكون منه التام والمجزوء والمشطور ، وهذا ما يمكن تصنيفه حسب المعايير الأوربية بحوراً جديدة هذا غير ما يلحق التفعيلة نفسها من تغييرات معروفة لأهل الفن ولا يستفيد غيرهم من ذكرها هنا . إنها سعة تسمح للموهبة أن تبدع كما تشاء فيما تشاء مع ضبط لا يسمح بتسرب الطفيليات وولوج من لا يملك المفتاح .

أما حسب المفهوم الحداثي فالطفل الصغير الذي يلغو بكلمات وتمتمات هائمة لا رابط بينها ، والشعرور الذي يخبط في العروض والقوافي ويلفق التراكيب الهشة ويضع كلمة سطراً . وجملة سطراً آخر وثلاث جمل سطراً ثم يرجع من جديد حتى يسود مساحة كبيرة من الورق بغثيان لا معنى له .. والنائم الذي يحلم ويهمهم بألفاظ لا نسق يجمعها .. والحشاش ... و ...- كل أولئك حداثيون تنطبق عليهم معايير القوم ١٠٠% - وبعبارة أوضح مادام لدى الإنسان مسكة من عقل فلا يمكن أن تصل معرفته إلى التلاشي المطلق فهذا شأن من يتعاطى أخطر ما أبدعته العبقرية الغربية من عقاقير الهلوسة!!

ولو أن المقام يتسع لعرضنا نماذج ممن تاب الله عليهم وثابوا إلى رشدهم ليعرضوا كيف كانوا يفكرون ويكتبون وينظمون في الماضي الحداثي الحالك كما حدثوني بذلك شخصياً أو كتبوه لي .

على أنني لو عذرت أحداً من أقطاب الحداثة لعذرت أولئك الدعاة الصليبيين التوراتيين الذين أرادوا أن تكون الثقافة العربية كلها سائرة على النمط التوراتي مضموناً وأسلوباً ، إنهم أذكياء استخدموا عقولهم

لبعث أساطير دينهم وإحياء أساليب كتبهم المقدسة وليسوا كبني جلدتنا الداخلين وراءهم في جحر الضب بلهاء ساروا في طريق يهدم حقائق الدين الرباني والحق الكتاب الإلهي المحفوظ مع دعوى إيمانهم به .

وإن تعجب فاعجب لأمة تهزها أزمات سياسية واجتماعية كبرى كالأزمة التي داهمت الأمة في حرب الخليج الثانية ويخرج أدباؤها ومبدعوها ليسودوا الصفحات بأن سبب الأزمة هو ((إشكالية النص)) !!

أما سائر البشر الذين جعلوا لها أسباباً أخرى فهم نمطيون سطحيون !!

((لقد كنا نحسب – كما العقلاء في هذه الأمة جميعهم – أن هذه الأزمة سوف تجتاح الحداثة فيما تجتاح من فقاعات سني الغفلة والترف ..

أما والحال كذلك وللمبررات الموضوعية التي تجعل القضية حية متدفقة وإن تلونت أو كمنت ولضرورة إقامة الحجة وإبانة سبيل المجرمين فلابد من تجدد الإسهام من أهل الخبرة وفرسان الميدان في هذا المجال . وإنما سطرت هذه المقدمة تذكيرا وإعذارا والله ولي التوفق.

مجلة الوعي الإسلامية